

سلسلة : وُصُولُ التَّهَانِي بِتَفْرِيعِ أَشْرَطَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ هَادِي (9)

كَلِمَةٌ بِعَنْوَانِ
تَذَكُّرِ الْمَوْتِ،
وَالِاسْتِعْدَادِ لِلْآخِرَةِ

للشيخ /

محمد بن هادي المدخلي

— حفظه الله —

المُدْرَسُ فِي الْجَامِعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ

بِالْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ

أَلْقَاهَا يَوْمَ الْخَمِيسِ

(24/ جمادى الآخرة/ 1435هـ)

فِي مَسْجِدِ بَدْرِ الْعَتِيبِيِّ — رَحِمَهُ اللَّهُ —

بِالْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله ، نبينا محمد ، وعلى آله ، وصحبه أجمعين ، أما بعد .

فإن مما لا شك فيه ، واستيقنته القلوب ، وآمنت به النفوس : قضية المفارقة لهذه الدامر ، هذه الدامر دامر ممر ، ليست بدامر مقرر ، قد كُتِبَ علينا فيها ما كُتِبَ ، والموفق من وفقه الله للصالح فيها ، والموفق أيضاً بعد ذلك من وفقه الله للتوبة قبل الموت ، قبل فوات الفُوت ، فإنَّ العبد لا يدري متى ينزل به الأجل .

فالواجب علينا جميعاً : أن نتوب إلى الله من المعاصي ، والذنوب ، والآثام ، والتقصير ، ونهتياً بصالح العمل ، واليوم قد تخطأنا الموت إلى غيرنا ، وغداً سيتخطى غيرنا إلينا :

فكم من صحيح مات من غير علة

كما قال الشاعر :

كم مريض عاش في الدهر مُدَّةً وكم من صحيح مات من غير علة

وصحيحٌ أضحي يعودُ مريضاً هو أدنى للموت ممن يعودُ

فالموت يمشي به معنا ، وهو أدنى إلى أحدنا من شراك نعله ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم

كلُّ امرئٍ مُصَبِّحٌ في أهله . . . والموت أدنى من شراك نعله

والواجب علينا جميعاً أن نتذكره دائماً وأبداً ، فإنَّ الذي يتذكر الموت دائماً وأبداً يستعدُّ لأخراه ، ولا تغرُّه

دنياه ، ﴿ فَلَا تَغْرُبَنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرَبَنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [فاطر: 5] .

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ [يونس: 24] .

ويقول جل وعلا - : ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ

هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ [الكهف: 45] .

وأهل الدين والعلم والإيمان هم أعرفُ الناس بقيمة الحياة الدنيا ، فهي لا تسوى عند الله جناح البعوضة ، أحقرُ عند الله من ذلك ، فإذا نظر العبد إليها هذه النظرة الصحيحة كانت في يده ، ليس في قلبه ، ليس لها في قلبه مكان ، فتجد كثيرها في عينه قليل ، والقليل كثير ، وهذا ما دعانا إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في تذكره إيانا وحثنا على التذكر للموت ، فإنه عليه الصلاة والسلام قد قال : " أكثروا من ذكر هاذم الذات ¹ " - يعني الموت - ، فإنه ما ذكر في قليل إلا كثره ، ولا في كثير إلا قلله ،

فيورث العبد القناعة ، وعدم الاغترار بهذه الدار ، والتشهير عن ساعد الجحد للعمل ، والاستعداد لدار القرار ، طلبه العلم وأهل العلم وأهل الدين والصلاح والعبادة هم الذين لا يتشاءمون من ذكر الموت ، وإنما يحبون ذلك ، لأنه يومرثهم القناعة ، ويصيرهم حبال الدنيا في قلوبهم ، لأنهم يعلمون أنه مهما طالَّت الحياة فإنهم سيغادرونها ، ولذلك يعمرونها بالصالح والاستعداد للقُدوم على الله - جل وعلا - .

فينبغي لنا جميعاً أن نحصر على هذا ، لأننا إن فعلناه أورثنا الحزم ، والعمل للثقل إلى الله - جل وعلا - ، وإن نحن تركنا ذلك أورثنا التكاسل ، والتهاون ، والتسويق ، وترك العمل - عياداً بالله من ذلك - اتكلاً على طول الأمل .

نُؤَمِّلُ آمالاً ونرجو بلوغها وفي كل يوم واعظ الموت يندبُ

أين ستذهب منه اليوم ؟ العام ؟ بعده ؟ نازل لا محالة .

هو الموت ما منه ملاذ ومهرب إذا حطَّ ذا نعشه ذاك يركبُ

¹ رواه الترمذي في " جامعہ " برقم (2307) وصححه العلامة الألباني .

نشاهدُ ذا عين اليقين حقيقةً وفي كل يومٍ واعظُ الموتِ يندبُ

فنسأل الله - جل وعلا - بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ألا يجعلنا وإياكم ممن تغافل عن هذه الحقيقة، وتساهل فيها، فأوبق دنياه وأخراه، أما الدنيا فبالغفلة عن الله، وأما الآخرة فبعدم البناء والاستعداد لها بصالح الأعمال . إن العلم الذي تتعلمه - معشر الأجابة والأبناء - تتعلمه لماذا ؟

للعمل الصالح، لتعمر به دمار القرام عند الله، لا للمفاخرة، ولا للمباهاة، ولا للمجاهرة، ولا للمناظرة والمجادلة والملاحاة، إنما للعمل، فالعمل الذي يورث العمل الصالح هو العلم النافع، والذي لا يورث عملاً صالحاً هذه حجة من الله على ابن آدم، فما التعلّمُ هذا الذي نصب فيه، وتتعب فيه: إلا لأجل أن نعمل لدار الآخرة، ونعبد الله على بصيرة، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

هذه الدار ستنقل عنها كما انتقل عنها الأخيار، الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والأولياء، والصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، فارقوها، وتركوها، والدورُ جاء علينا، سنتركها شيئاً أم أبينا . فالله الله - معشر الأجابة والأبناء - تذكر الله والتجاني عن هذه الدار، فإنها تنتقل عنك مرغماً عنك، ويكفيك أن اسمها دنيا، دنيّة،

فيا طالب الدنيا الدنيّة جاهداً ألا اطلب سواها إنها لا وفاها
فكم قد رأينا من حريصٍ ومُشفقٍ عليها فلم يظفر بها أن ينالها
ليلهو ويغتر بها ما بدا لهم متى تبلغ الروح تصرم حبالها
لقد نظروا قومٌ بعين بصيرةٍ إليها فلم تغرهم باختيالها
ومال إليها آخرون مجهلهم فلما اطمأنوا أمر شقتهم بنالها

هذه الدامر ليست بدمارٍ قرامر ، فيا - معشر الأجابة - الله الله في الاستعداد للرحيل عنها ، فإنها والله من عرفها حق المعرفة لا تكبر في عينه ومن عرفها حق المعرفة لا تعظم في عينه ، ومن عرفها حق المعرفة لا يغتر بها ، لأنها ظل نرائل ، لذلك شبهها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالشجرة تقيء ظلالها يئنة ويسرة ، من استظل بها صباحاً انكفأت عنه مساءً ، ومن استظل بها مساءً انكفأت عنه صباحاً .

فنسأل الله - جل وعلا - بحوله وقوته أن يحول بيننا وبين اختيالها .

أسأل الله - سبحانه - أن يرزقنا الفقه في دينه ، والبصيرة فيه ، والثبات على الحق والهدى حتى نلقاه ، إنه جواد كريم .

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله ، نبينا محمد ، وعلى آله ، وصحبه أجمعين .